الكشوف الجغرافية

دَوافِعها - حَقيقتها

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٣٩٣ هـ

المكتب الاسلامي : بيروت : ص . ب : ٣٧٧١ برقيا : اسلاميا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته وبعد : لقد كتب عن الكشوف الجغرافية كثيراً ، كتب قديماً كما كتب حديثاً ، ولكن هذه المعلومات لم تكن سوى معلومات تقليدية تتحدث عن الكشوف وسيرها والطرق التي سلكتها والملاحين الذين قادوها ، ثم تبحث في العوامل التي دعت الى القيام بها ، والنتائج التي أدت اليها ، كل هذا حسب رأي أوربا وتخطيطها للموضوع ، لا يختلف في ذلك قديم الكتابات عن حديثها غير ما تضيفه المعاصرة منها عن الكشوف التي تمت في الأيام الأخيرة للمناطق القطبية وارتياد البقاع المجهولة وسط الغابات الكثيفة أو الصحراوات المقفرة ، هذا مع العلم أن كثيراً من الكتب وخاصة ما يتعلق منها بالرحلات أو الجغرافيين ما تتحدث عن الوصول الى اميركا قبل كولومب والأوربيين أو الى رأس الرجاء الصالح قبل بارتلمي دياز والغربيين أو عن بحارة الاسبان والبرتغاليين الذين كانوا من المسلمين غير قادتهم

الايطاليين ، ولكن هذه الاخبار تنقل نقلاً مجرداً ، أو تعطي صفة الرواية والاخبار دون متابعة أو استنتاج وهذا لا يؤدي الى شيء ، ولا يصل بنا الى نتيجة نتوخاها أو معرفة نبتغيها . ورغم تقديرنا الى كل مـا كتب ، واعترافنـا بفضـل الذين اسهموا في هذه الموضوعات ، فان هذه المعلومات التي أوردوها إن بقيت كما هي ، وكما أرادتها أوربا بالذات ، فاننا سنبقى في مكـاننا لا نتحرك ، ولا نتقدم في كتابـة تاريخنا بأنفسنا شيئاً ، وسنبقى تبعاً لأوربا ومعلوماتها وتاريخها وكتاباتها ، نقلد دون ادراك ، ونأخذ من غير وضوح في الرؤية ، ونحاضر من غير روية ، ونتكلم من دون علم ، ونكتب دون مناقشة ، لا نختلف عن البدائيين إن لم نقل عن بعض أنواع الحيوان ، إننا بحاجة الى أن نناقش الفكرة قبل أخـذها ، ونمحص الموضوع قبل عرضه على مجتمعنا وقبل تقديمه لأبنـائنا وأجيالنـا .

إن الدوافع التي دفعت أوربا للقيام بما وصلت اليه لم تدرس بعد دراسة كافية من جميع جوانبها وخاصة التاريخية منها ، إننا لم نزل نأخذ الجانب الاقتصادي ونهمل الجانب الديني الصليبي ، وهذا الأمر هو الذي تؤكد عليه أوربا ، إننا نريد أن نبحث هذا الجانب المهمل لنتأكد أو نؤكد أنه هـو الأساس الذي دفع أوربا للقيام بما وصلت إليه ، وأن الجانب الاقتصادي قد نتج عنه ، أو كان ظله أو الدرع الذي أخفت

أوربا خلفه حقيقة وجودها خارج بلادها أو في مستعمراتها .

إن الدول الأوربية قد دفعت الاسبان والبرتغال لقتال المسلمين وأمدتهم بكل ما يحتاجون إليه حتى إن بحارتهم كانوا من غير أبنائهم ، وكانت نتيجة ذلك الامداد ، وكانت نتيجة تلك المساعدة أن استطاع الاسبان والبرتغاليون ـ وا اسفاه ـ طرد المسلمين فعلاً من الاندلس وملاحقتهم في كل مكان ، وكانت خطتهم تطويق المسلمين ، وأثناء تنفيذ الخطة تمت معرفتهم لمناطق جديدة بالنسبة إليهم ، فانطلقوا فيها ، وأغرتهم بغناها ، فانتقلوا من الحروب إلى جمع الثروة والتوسع في أراض جديدة أو لازم أحدهما الآخر ، وهذا ما أثار عليهم أصدقاء الأمس الذين حسدوهم في الاستعمار والتوسع ، واتهموهم بترك المهمة الأساسية التي ساروا من أجلها ، والتي تلقوا المساعدات الكبيرة في سبيل تنفيذها ، وهي قتال المسلمين ، ولكن المغريات قد عطفت بهم الطريق ، وحولتهم عن مهمتهم الأصلية بعض التحويل ، لذلك قاموا ينافسونهم ، فحصل التنافس الاستعماري الذي طفى عليه الجانب الاقتصادي ظاهرياً ، وجعل عليه غطاءً رقيقاً لم يكشف بعد ، وإن كانت رؤيته لمن يمعن النظر من أصحاب الأبصار حيث يمكن أن تظهر لشفافية الغطاء ، وعندها يبدو الاستعمار في ثوب رجل دين نصراني يحمل الصليب ، ويكشر عن أنيابه ، يريد أعمالها لتمزيق المسلمين .

هذا الجانب الاقتصادي أو التنافس الاستعماري قد طفى في النهاية على صورة الاكتشافات وأظهر الاستعمار على أنه ظل له ، وأنسى الكثيرين واقعه الحقيقي ، فكتبوا عن الاستعمار وأثره على البلاد وأهدافه وغاياته والوسائل التي اتخذها ، ولولا دعم الاستعمار للمبشرين وسياسته الواضحة في ذلك ، تلك السياسة التي فتحت نافذة تشرف على حقيقة الاستعمار لولا ذلك لبقي غامضاً نسبياً ، وقد أطل بعضهم على الاستعمار من هذه النافذة فرأى جانباً من حقيقة الاستعمار ، فتكلم على خوف ، وأوجز عن ضعف ، فكانت صورة ناقصة غير كافية ولا وافية .

وكلما مرت الأيام كشفت عن حقائق أكثر وصور أوضح بحاجة لإضافة بعضها الى بعض لتتكامل صورة الاستعمار الحقيقية في أذهان الناس ، وعندئذٍ لا يرون إلا الصليبية بحقدها البشع ، وأنيابها البارزة ، وأعمالها الوحشية ، وطمسها للحقائق ، وإخفاء كل أثر لغيرها وخاصة إن كان أثراً اسلامياً ، وقصر كل شيء علمي أو أثر فني عليها وعلى أبنائها .

أميركا التي وصلها المسلمون قبل كولومب ، وأقاموا فيها ردحاً من الزمن يشيدون البناء ، ويعملون لبناء الفكر ، فجاءت أوربا باكتشافاتها تطمس هذه الحقيقة ، وتزيل هذا الواقع بإبادتها الغادرة لهم هناك ، وبجريمتها الوحشية بإزالة

كل آثارهم هناك ، وبحقدها الشديد بتشويه التاريخ وبالكذب الصريح ، ولكن بدأت تظهر هذه الحقيقة من خلال بعض الآثار التي وجدت في بعض الخرائب التي فعلتها أيدي الصليبية وأصابع الحقد كما سيتبين ذلك في هذه الرسالة .

ومن هذا المنطلق رأيت أن أوضح بعض هذه المعاني بلا توسع ليستطيع الجميع قراءتها ، ويتسنى لكل طالب حقيقة معرفتها ، وليضع كل منصف يده على مفتاح الحقيقة يتلمسها ، وينطلق منها ، ويبدأ من أول الطريق يسير فيه يطلب المعرفة ويبحث عنها حتى يصل إلى الحق والصواب وهذا هو هدفنا ومبتغانا .

هذه الرسالة في الأصل موضوع محاضرة كنت ألقيتها فاقترح عليّ بعض من سمعها من أساتذة الجامعة والكليات أن أنشرها ليعم نفعها ، فاستجبت لهذا الاقتراح راجياً أن أكون بهذا الرأي قد حققت ما أبغيه من الاستقلال في النظر والفكر فإن وُفّقتُ فذلك فضل الله ، وإن أخطأت فعذري أني اجتهدت .

والله نسأل التوفيق وسداد الخطى وهو نعم المولى ونعم النصير .

١٠ ذي القعدة ١٣٩٢ هـ .

إن الوقت الذي كانت تسطع فيـه شمس المعرفـة على ديار الاسلام ، ويشع فيه العلم من هناك ، وتتألق الحضارة الإسلامية ، فترسل أشعتها إلى ما جاورها من أمصار لتلفهم بين جوانحهـا ، وتنقذهم من الظلمـات إلى النور ، وتخلصهم من الجاهليـة العمياء لتدخلهم إلى واقع الإسـلام المنير ، في هذا الوقت كانت أوربا تترنح في الجهل ، وترزح تحت كابوس الظلم ، وتستكين لنير الطغيان ، وتخضع حانية الرأس للطواغيت الجهلة ، وتخنع غامضة البصر عن نور الحق ، وتقبـع في عزلة عن كل تيار حضاري ، فكان لا يرتفع مستوى البشر فيهـا إلى أدنى مستويات الجماعات البدائيـة اليوم التي ذاقت من أوربا الويلات منـذ أن وقفت على أقدامها .

بدأت أوربا تنفض عن عيونها غبار الجهل الذي ورثته خلال قرون طويلة خلت بعـد أن وصلت إلى بعض مناطقها أشعـة الحضارة الإسلامية ، فجلت بسناها تلك الأرجاء ، واستفادت أوربا بقبس منها ، فالأندلس وجنوب فرنسا وجنوب ايطاليا وجزر البحر

الأبيض المتوسط كلها كانت مراكز يشع منها النور والمعرفة على أوربا ، ومنها كانت الحركات الأولى التي امتدت لتنفض غبار الجهل ، وتخلع حجاب الظلم إضافة إلى ما استفادته أوربا من احتكاك بالمسلمين في الشرق سواء عن طريق الحروب الصليبية أم عن طريق التجارة الحرة التي سهل المسلمون دروبها لعل الخير يصل عن طريقها إلى بقية الشعوب . فالمسلم لا يريد للعالم إلا الخير .

لكن أوربا اليوم ترفض حقيقة الأمس ، وتصر على أن أسباب نهضتها إنما يعود لذاتيتها ونشاط أبنائها ، وتجعل من هروب عدد محدود من علماء الرومان الشرقيين في القسطنطينية عند فتحها على يد محمد الفاتح العثماني رحمه الله ، والتجائهم إلى أوربا كان عاملاً رئيسياً من عوامل النهضة ، كما تزعم أن اكتشافات جغرافية قام بها رجالها كانت أساس النهضة وسبب التقدم . فهي بهذا ترفض أن تدين بالفضل للحق ، وإنما تدعي أن نهضتها كانت ذاتية ومن أصول أوربية خالصة ، وخاصة ما أسمته بالاكتشافات الجغرافية التي هي موضوع محاضرتنا .

لنبحث في هذه الاكتشافات ـ حسب رأي أوربا ـ وما الدوافع التي أدت إليها ؟ وهل كانت اكتشافات فعلاً توصل إليها البشر

أول مرة أم هي ادعاء أوربي وكان البشر على علم بها من قبل؟ ولما كانت أوربا قد سيطرت على العالم في حين مضى فقد فرضت عليه هذه المعلومات الخاطئة حتى أصبحت شبه حقيقة واقعة بين بقية سكان العالم.

تدعي أوربا أن الحافز لها في هـذه الاكتشافات هو تجارة التوابل والحصول على المال، لكن هذا الادعاء لا يستند إلى حقيقة علمية، ولا يقبله تحليل صحيح، فقد كانت الدول التي تدعي هذه الاكتشافات ـ اسبانيا والبرتغال ـ لا تزال أهم أجزائهـا الجنوبية في ظل الحكم الاسلامي، وكان شغل الاسبان والبرتغاليين الشاغل هو اخراج المسلمين من الأندلس، ومع هذا فقد وصل البرتغاليون رأس الرجاء الصالح في أقصى جنوب إفريقية وهم في غمرة الحروب مع المسلمين، إذن كان وصولهم لتنفيذ خطة حربية، فقد وصلوا قبل سقوط الأندلس بست سنوات. وكان الاسبان والبرتغاليون يلقون الدعم الأوربي، بل كانت أوربا كلها من ورائهم، فهل يقبل والوضع هكذا أن يكون همُّ الاسبان والبرتغاليين الحصول على التوابل كما تدعي اوربا؟ هل يقبل إنسان أن همَّ اوربا أثناء الحرب العالميـة الثانية الحصول على مادة الفلفل أو الزنجبيل وهي مادة

كمالية غير ضرورية ؟ لو ادعى هذا مؤرخ لاعتبر مجنوناً . فهل نرضى بعد هذا زعم الأوربيين ؟

وأما الحصول على المال فهل يسعى الانسان وراء المال في مكان مجهول أو يبحث عنه في مكان لا يزال في عالم الخيال ؟ إلا إذا كان هذا في الحلم أو جاء في إحدى الأساطير القديمة والخرافات االأوربية .

إن حقيقة الدوافع التي تكمن وراء وصول أوربا إلى ما وصلت إليه من اكتشافات جغرافية بالنسبة اليها إنما كانت الحروب الصليبية التي كانت ولا تزال يحمل التاريخ لنا صوراً منها ، ولا يمكن بحث هدا الموضوع دون الرجوع إلى التاريخ قليلاً لنوضح ما غمض ، ونظهر ما أخفته أصابع الحقد وأيادي التقليد .

في النصف الأول من القرن السابع الميلادي ، وفي وسط الجزيرة العربية تكونت أمة العقيدة فكانت الفئة المؤمنة الأولى في تاريخنا هي التي عبثت بالقوى المادية واستهزأت بها ، ولم يمض أكثر من ربع قرن تلقت فيه هذه الجماعة الدروس العملية ، حتى ألهبت القوى الكامنة في النفوس ، فإذا بها تدك صروح الشر في أعظم قلعة له ، وتدوس تحت أقدامها كل القوى المادية التي تحطمت أمامها

معلنة الضعف الحقيقي ، ومظهرة أن المادة لا يمكنها أن تقف أمام الروح بأي شكل من الأشكال ، وإذا بأضخم الحصون تنهد ، وأعظم المعاقل تندك ، وأكبر الجيوش تهزم ، وأقوى الدول تخضع ، وإذا بالقلوب القاسية تنفتح للإيمان ، والعقول المتعطلة تتعطش للروح ، وإذا بمجد الفرس ينتهي ، وعز الروم يختفي ، وتنعدم من الوجود كل قوة سوى هذه القوة المؤمنة التي أصبحت عملاقة العالم ، تمده بالنور والإيمان ، وتزوده بالقانون والأخلاق ، ويستمد منها العدل والقيم ، ويأخذ منها الأمر والتوجيه .

أما قوى الشر فقد هالها الأمر حيث طرقت جحافل الخير أبواب باريس ، وسطع النور في جنوب فرنسا فاستنارت به بعض المناطق ، ولكن ماذا تفعل قوى الشر أمام هذا الانطلاق السريع والتألق البديع ؟ انتظرت وقد سكنت في جحورها وعادت إلى أوكارها ، ولم تستطع أن تبدي حراكا ، فقد لاحظت شيئاً لم تعهده من قبل ، ورأت قوة لم تكن تتوقع مثلها في بني البشر ، فآثرت السكون والهدوء . يقول ابن الجوزي : « فلما جاء نبينا ﷺ فقهر الملك ومنع الالحاد أجمع جماعة من الثنوية والمجوس والملحدين ومن دان بدين الفلاسفة المتقدمين فأعملوا آراءهم وقالوا :

قد ثبت عندنا أن جميع الأنبياء كذبوا ومخرقوا ... وأعظم كل بلية علينا محمد ... والآن قد تشاغل أتباعه فمنهم مقبل على كسب الأموال ومنهم على تشييد البنيان ومنهم على الملاهي وعلماؤهم يتلاعبون ... وقد ضعفت بصائرهم فنحن نطمع في ابطال دينهم[1] .

خلف من بعد هؤلاء المؤمنين خلف أضاعوا الجهاد فاستكانوا ، وانصرف بعضهم نحو العلم النظري بكليتهم ، واتجه آخرون نحو العمل يشؤون دنياهم ، وقد ظنوا أن في المادة التي حصلوا عليها دوام قوتهم وبقاء عزتهم ، فتوقف خط سيرهم نحو التقدم والاندفاع ، ووقف خط النور لا يسير ، ولم يشعر هذا الجيل بما يجب أن يشعر ، فقد ورثوا الجاه الواسع ، والوطن الشاسع ، والمال الوفير ، والخير الكثير ، فلم يجدوا شاغلاً لوقتهم غير النزاع ، ولفراغهم غير الضياع ، فبدا الضعف ظاهراً جلياً ، فتحركت قوى الشر من جديد ، وظنت أن الوقت قد حان لها لتتحرك من مكانها ، وتغير مواقعها ، وتنقض على قوى الخير ، علها تحصل على النصر ، وفكرت وقدرت ، ورأت أن الظرف موات لها في الأندلس أكثر من

(١) القرامطة ــ ص ٣١

غيرها من بلاد المسلمين ، فإن النزاع فيها أكثر وضوحاً ، والخصام أكثر جلاء ، وإنها تقع على أطراف بلاد الإسلام ، فنجدتها صعبة ، وبعد الشقة مع المشرق كبير ، يضاف إلى أنها أقرب النقاط إلى اوربا التي استقطب فيها أعداء الإيمان قواهم ، فجمعت الجموع ، واستنفرت الحشود ، ورمت بسهمها لتصل إلى غايتها ، فإذا بها تسير نحو مصيرها المحتوم ، وإذا الهزيمة المنكرة مؤكدة لها ، إذ لا تزال في المسلمين بقية باقية من قوة ، استطاعت ان ترد بها الأعداء ، وتسحقهم في معركة الزلاقة الشهيرة عام ٤٧٩هـ - ١٠٨٦م أيام المرابطين في المغرب الذين قدموا لمساعدة إخوانهم في الأندلس ، ثم أعادت اوربا الكرّة أيام الموحدين ، فأعادوا تقديم المساعدة ، وعادت اوربا بالهزيمة المنكرة والخسران المبين .

خاب أمل القوى المادية في الأندلس من النصر ، ولكنها ظنت إن كان قد خاب هناك فسيظهر في المشرق ، حيث المجال الواسع ، والأفق الرحب ، وإذا تم هناك النصر حيث مهد الإسلام فقد انتهى الأمر ، وكانت الحروب الصليبية ، حيث اتجهت جموع نحو المشرق لا حصر لها ، وأعداد لا تعرف النظام ، تسير كالسوائم ، تهلك الزرع والضرع ، وتحرق الأخضر واليابس ، لا يحركها إلا

هواها ، ولا يقودها إلا حقدها ، وأكابر مجرميها ، فأخافت السكان الآمنين الذين تركوا الجهاد ، وقد ارتاعوا من منظرها ، فلم يتعودوا هذه الهمجية ، ولم يخبروا تلك الوحشية ، وهـذا ما زادهم ضعفاً ، وفتح للصليبيين باب الأمل في تحقيق ما يبغون .

حصل الصليبيون على بعض النصر المؤقت ، والظفر القليل ، وظنوا أنهـــم ملكوا البحرين ، وقادوا الثقلين ، فعاثوا في الأرض الفساد ، وعم الخراب كافة البلاد ، ولم يحسبوا ليوم كريهة حساباً ، وما هي إلا مدة حتى ثاب المسلمون لرشـدهم ، وأعادوا حساباتهم ، فعادوا إلى دينهم سبب عزتهم وقوتهم ، فإذا بالصليبين يرون أنفسهم في البحر فجأة مقهورين مغلوبين على أمرهم . ففي الإسـلام قوة كامنة ، تتجـدد على مدى الأيام ، وكلما حاولت قوة باغية أن تعتدي على المسلمين ، إذا بهـــم يدوسونها ، وتخر أمامهم صريعة ، مهما بلغت ضخامتها المادية ، ومهما طالت المدة ، فإن للحق جولة يسحق بها الباطل مهما تمادى في غيه .

عاد الصليبيون إلى الأندلس يحاولون مرة ثانية ، فتجددت الحرب ، وطال الزمن ، وكانت المعارك سجالاً ، وإن كان

الخط العام يسير في مصلحة الصليبيين ، بسبب تفرق المسلمين وتنازعهم . وفي هـذا الوقت بالذات بدأ الأسبان والبرتغاليون يعملون ضمن مخططات مدروسة ، وتدعمهم أوربا مادياً ومعنوياً وبشكل قوي جداً .

هذا من جانب ومن جانب آخر فقد انساح المغول من أواسط آسيا نحو شرقها ، فاجتاحوا الصين ، ثم اتجهوا غرباً ، فدخلوا أرض المسلمين ، وانساحوا فيها يخربون ، ويدمرون ، ويحرقون ، ويقتلون ما شاء لهم هواهم ، فازداد ضعف المسلمين وتفرقهم ، وكان رقودهم ونومهم ، وخاصة أن هذا قد جاء بعد الحروب الصليبية والجراح لم تندمل بعد ، والحوافز لم تظهر ، فجاءت الضربة إثر الضربة فأورثت شيئاً من اليأس أعقبه التفكك والإخلاد إلى الأرض . وسيطر المغول على البلاد كما فتحوا شرق أوربا . فلم يستطع سكان المشرق مساعدة إخوانهم في المغرب لما هم فيه .

توقفت فتوحات المغول بعد هزيمتهم في فلسطين أمام المماليك في معركة عين جالوت عام ٦٥٨ هـ ـ ١٢٦٠ م وتجزأت دولتهم إلى أجزاء يحكم كلاً منها خان مستقل ، ولما كانوا في أرض ذات

حضارة فقد انصهروا فيها ، وتأثروا بها ، فدخل خانات غرب آسيا وأواسطها في الإسلام .

وقام تيمور بتزعم التتـار الذين ثاروا على حكامهم المغول ، وورث التتار امبراطورية المغول الشاسعة بعد حروب طاحنة ، ومناورات عظيمة ، واحتفظ تيمور لنفسه بلقب أمير ، وأقام خاناً من أحفاد جنكيز خان في مدينة سمرقند صورة أثرية ورمزاً لتحالف قديم بين المغول والتتار ، وإن كان الأمر مرهوناً كله بيد تيمور .

وبعد موت تيمور عام ٨٠٨ م — ١٤٠٥ م اختلف الأمراء من بعده على العرش ، فتجزأت الدولة الواسعة ، واستحالت قوتهـــا إلى ضعف ، وبدأت الولايات تنفصل عنها . والمناطق الخاضعة لهـا تتمرد عليها ، بالانفصال تارة وبالاستقلال أخرى ، ومنها روسيا التي تحررت من التتار عام ٨٨٥ ه — ١٤٨٠ م على يد أمير موسكو الذي بدأ يسعى لتأسيس دولة قوية له ، ومنذ تلك الأيام بدأت هذه الدولة الجديدة تظهر في العالم ، وتتضخم تدريجياً .

بعد أن خضعت روسيا للمغول لم يبق منها سوى بعض الأمارات المستقلة ، كانت موسكو أهم هذه الأمارات ، ولكنها كانت في الوقت نفسه تؤدي الجزية للمغول ، وعندما شعر أمراؤها بالضعف الذي أصاب المغول ، انتقضوا عليهم ، وبدأوا بالتوسع نحو الشرق حيث التتار المسلمون ، وحيث لا يمكنهم التوسع نحو الغرب لأن القبائل الجرمانية كانت في تلك الجهات ذات بأس وقوة ولم تستقر بعد .

استطاعت الامبراطورية البيزنطية التي كان مركزها في القسطنطينية والتي لم تكن قد فتحت بعد للعثمانيين — وإن كانت محاطة بهم من كل الجهات ومهددة بالسقوط في كل لحظة — استطاعت هذه الدولة العجوز أن تثير الصقالبة الروس ، وأن تنمي فيهم الروح الصليبية الحاقدة حيث ينتمي كلاهما للمذهب الأرثوذكسي ، وتدعوهم لجمع الأراضي الروسية ، وأبنائها الأرثوذكس ، والانتقام من التتار المسلمين إخوان العثمانيين الذين يهددون عاصمة الدولة البيزنطية ومركز الارثوذكس ألا وهي القسطنطينية .

لم تمض مدة طويلة حتى زالت الدولة البيزنطية ، وفتحت

عاصمتها أبوابها للمسلمين واندفع العثمانيون بقوة أكبر نحو أوربا يزيلون قلاعها ، ويحطمون حصونها ، ويهزمون جيوشها التي تغزوا أمامهم حتى غدوا في وسط أوربا .

وجدت أوربا نفسها تقاتل المسلمين على جبهتين ، الأولى في الشرق ضد العثمانيين ولا تستطيع الصمود أمامهم حيث دولتهم في أوج قوتها ، ولا يزال رجالهم أولي بأس شديد ، لم تفت في ساعدهم الرفاهية ، ولم تعبث بهم المدنية . والثانية في الغرب ضد الأندلسيين ، وقد أضعفهم التفرق وشتتهم النزاع ، وأذهبت ريحهم الأهواء ، فاحتمال النصر هنا أقوى ، وامكانية الفوز أكثر ، لذا وجهت أوربا إهتمامها نحو الأندلس ، ورمت بثقلها هناك . لكنها قررت في الوقت نفسه أن يستمر الروس في حربهم ضد العثمانيين والتتار ، وقامت الحروب الصليبية هناك ، وتجلت بشكل واضح إبان حكم إيفان الثالث الذي أخرج التتار عام ٨٨٥ هـ - ١٤٨٠ م ، ثم إبان حكم إيفان الرابع الذي سمي بالرهيب بسبب ما ألحق بالمسلمين من أذى من قتل وذبح جماعي ، وقد استطاع هذا أن يضم المدن التتارية الكبرى إلى إمارته الواحدة تلو الأخرى وهي قازان واستراخان وغيرهما ..... وكان شعار

الروس آنذاك الاستيلاء على القسطنطينية والمضائق وإعادتها مركزاً للأرثوذكس ، وكانوا يثيرون الشعب في هذه الناحية ، ويستغلون العاطفة الدينية لديه ، ويعتبرون المسلمين جميعاً مسؤولين عن فتحها على يد العثمانيين ، لذا كانت حربهم شديدة على التتار فكانوا عندما يستولون على مدينة يذبحون من أهلها ما استطاعوا ذبحه ، ومن بقي يجلونه ، وكم كان حقدهم شديداً عندما أجلوا سكان مدينة استراخان ، وأثناء نزوح هؤلاء السكان انتشر الإسلام على أيديهم على طول الطريق التي سلكوها ، ويعتبر الروس أن حربهم مع المسلمين لن تنتهي إلا بعودة القسطنطينية إلى حظيرة الصليب وكقاعدة للمذهب الأرثوذكسي ، والاستيلاء على أرض التتار كلها . ومن هنا يظهر أن أصحاب الفكرة الواحدة والعقيدة الواحدة يرتبط بعضهم مع بعض ارتباطاً قوياً ، مهما بعدت ديارهم ، ونأت أقطارهم ، حيث نرى أن العثمانيين المسلمين عندما انتصروا على الدولة البيزنطية النصرانية ، قام الصقالبة النصارى ينتقمون من المسلمين التتار ، بل اعتبرت دولة روسيا الجديدة نفسها وريثة لتلك الدولة التي أُزالت ، كما نصبت نفسها حامية للنصارى الأرثوذكس ، واعتبرت جميع المسلمين في أية بقعة من

من الأرض مسؤولين عن تقويض الدولة البيزنطية وفتـح عاصمتها القسطنطينية .

أما في جبهة الأندلس فقد رأى البرتغاليون ضرورة تطويق المسلمين لإمكانية إحراز النصر ، فقام ملك البرتغـال حنا الأول بحملة على المسلمـين في مراكش ، واحتل سبته ، وجعـل ابنه هنري حاكماً عليها ، لكنهم وجدوا أن التطويق يجب أن يكون عن طريق الوصول الى بلاد لا يسكنها مسلمون ، حتى لا يساعدوا سكان الأندلس بثورات يقومون بهـا ، فكان الانتقال على السواحل الإفريقية الغربيـة ، فكلما وصلوا مكانـاً وجدوا فيه مسلمين تركوه واتجهوا نحو الجنوب ، بعـد أن يؤسسوا فيه قاعـدة ، وأخيراً وصلوا إلى الرأس الأخضر ، ولما وجدوا فيه مسلمين كانت خطوتهم اوسـع ، فوصلوا الكونغو ، وتجاوزوا خط الاستواء ، ثم دفعت العواصف بارتلمي دياز نحـو الجنوب حتى وصل أقصى الجنوب من القارة الإفريقية ، وتجاوزهـا حتى وصل إلى السواحل المطلة على المحيط الهنـدي ، ولما عاد سمى الطرف الجنوبي من القارة برأس العواصف ، ولكن ملك البرتغال أطلق عليه اسـم رأس الرجاء الصالح حيث شعر بأمل في

امكانية تطويق المسلمين ، كان هذا والمسلمون لا يزالون مرابطين في الأندلس .

ضعف أمر المسلمين في الأندلس كثيراً ، واستطاع أخيراً الاسبان والبرتغاليون أن يخرجوهم منها نهائياً ، ولم يكتف الاسبان والبرتغاليون بهذا الاخراج بل أرادوا ملاحقة المسلمين في المغرب ، واخراجهم منها ، وقد تمكنوا من السيطرة على بعض المراكز على شواطىء البحر الأبيض المتوسط شمال المغرب مثل مليلة ووهران ، كما استولوا على مناطق على شواطىء المحيط الأطلسي في غرب بلاد المغرب ، وبعد ان استقروا في هذه المراكز شعروا بعدم امكانية التوغل نحو الداخل لتمكن المسلمين ، وبعد أن ذهبت نشوة النصر الموقت ببعض حقدهم رأوا أن الاندفاع في الحروب ، والمغامرات في القتال لا تجدي شيئاً بلا تخطيط .

بدأ التخطيط ورأوا أن عليهم :

١ ـ معرفة طرق تجارية غير الطرق التي يسيطر عليها المسلمون ، وبهذا يصل الأوربيون إلى الشرق ، وينافسون المسلمين الذين يفقدون ما يجنون من أرباح من تجارة يسيطرون على طرقها.

٢ ـ عند الوصول إلى الشرق يجب السيطرة على تلك المناطق لامكانية التطويق والاستعداد التام لقتال المسلمين .

٣ - يجب العمل على نشر النصرانية في البلاد التي يدخلونها وحث النصارى على محاربة الإسلام حرباً لا هوادة فيها .

٤ - الاتصال بنصارى الشرق وحضهم على العمل معهم لاجتثاث جذور الإسلام .

٥ - الاستفادة من كل خلاف بين المسلمين .

كانت البرتغال تتبنى هذه الآراء ، وتعد لها ، وتسعى إلى تنفيذها ، وكانت قد أرسلت بعض اليهود الذين يجيدون العربية إلى مصر حيث أظهروا هناك الاسلام ، وتقربوا من الحكام مستفيدين من أوضاعهم المادية الحسنة ، فاستطاعوا ان يعرفوا أحوال جيش دولة المماليك أقوى الدول الاسلامية آنذاك ، والتي تسيطر على شرق افريقية وتساعد المسلمين في حربهم ضد الأحباش والنصارى ، كما تعرفوا على أوضاع البلاد الداخلية ، وسرقوا خرائط البحار ، والمعلومات عن الملاحة ، وكيفية التخلص من منطقة الهدوء الاستوائي التي بقيت لغزاً يصعب حله لدى الأوربيين حتى تلك الساعة ، حيث تهدأ الرياح في المنطقة الاستوائية ولا تتحرك السفن التي تسير على الشراع ، وهي المعروفة فقط آنذاك ، ولا يمكن التنقل إلا في الربيع

شمالاً مع حركة الشمس الظاهرية ، وفي الخريف جنوباً مع تلك الحركة . وعندما أخذ اليهود كل ما يريدون انسلوا من مصر عائدين إلى البرتغال ، وقدموا مالديهم للحكومة ، وبهذا حصلت البرتغال على ما تريد . وما ان خرج المسلمون من الأندلس ، حتى كانت البرتغال قد أرسلت بعثة مؤلفة من ثلاثة مراكب برئاسة فاسكودي غاما – وكانت قد توافرت لديها كل المعلومات عن المنطقة – فوصل رأس الرجاء الصالح ٩٠٣ هـ – ١٤٩٧ م ، والتف حول افريقية ، وسارت سفنه مع تيار موزامبيق شمالاً ، وطلع على المراكز الإسلامية في شرق القارة الافريقية ، فدخل زنجبار عام ٩٠٧ هـ – ١٥٠٣ م واستولى على مدينة كيلوا عام ٩١١ هـ – ١٥٠٥ م ، والتقى في مالندي بالرحالة المسلم ابن ماجد الذي دله على طريق الهند . وهكذا يتأكد لنا أن البرتغاليين يريدون الوصول إلى نهاية بلاد الإسلام ليستطيعوا تطويقهم فإن فاسكودي غاما لم يقترب من سواحل بلاد العرب أو ايران أو سجستان ، وإنما اتجه مباشرة إلى الهند ، وتمكن من الوصول إلى كالكوتا ، ولكنه وجد فيها مسلمين ، واستقبل من قبل حاكمها استقبالاً سيئاً ، فأضمر الحقد ، وعاد إلى البرتغال ، ولكنه

عاد بعد مدة على رأس حملة جديدة ، فاتجه مباشرة نحو كالكوتا ، وضربها بالقنابل انتقاماً لزيارته الأولى لها .

كان البرتغاليون يرغبون في الوصول إلى آخر ديار الإسلام ، ولكنهم يئسوا من ذلك ، فما وصلوا الى منطقة إلا وجدوا فيها مسلمين حيث كان المحيط الهندي آنذاك بحراً اسلامياً خالصاً ، لذلك فكروا في الانتقام من المسلمين وغزوهم في عقر دارهم في أرض العرب . ويمكن أن نستشعر الروح الصليبية عند البرتغاليين في كل الأعمال التي قاموا بها . فإضافة إلى ما قام به فاسكودي غاما من ضرب كالكوتا بالقنابل ، فقد أغرق سفينة في خليج عُمان تنقل الحجاج من الهند إلى مكة وعلى ظهرها مائة حاج حيث أعدمهم جميعاً بعد أن فعل بهم الأفاعيل ، ثم عاد إلى كالكوتا فأحرق مجموعة من المراكب كانت محملة بالأرز ، وقطع أيدي وآذان وأنوف بحارتها . وكان في مدينة كيلوا في شرق إفريقية ثلاثمائة مسجد ، دُمِّر معظمها على أيدي البرتغاليين بمجرد دخولهم المدينة ، وأعلن البرتغاليون بعد انتصارهم على المماليك في معركة ديو البحرية أنهم سيهدمون الأماكن المقدسة الاسلامية في مكة والمدينة ، وأنهم سيزيلون معها آخر آثار الاسلام ، وهذا ما جعل العثمانيين

يتجهون نحو بلاد العرب يضمونها إلى دولتهم ليقفوا في وجه البرتغاليين .

ونستطيع أن نحكم على الروح الصليبية التي سادت تلك الاكتشافات بل كانت الدافع الأساسي لها من مشروعات « البوكرك » وأقواله وهو الذي خلف فاسكودي غاما والذي يعود إليه الفضل في توطيد دعائم الامبراطورية البرتغالية ، فقد كان يقول : إنه يريد انجاز مشروعين من مشروعاته قبل موته وهما :

١ ــ تحويل مياه نهر النيل إلى البحر الأحمر ليحرم مصر من ري أراضيها ، ويخرب شبكة الري التي كانت قائمة فيها آنذاك . ومن المعلوم أن مصر كانت أهم دولة إسلامية وقتذاك من حيث موقعها وعدد سكانها وامتلاكها رقعة كبيرة من الأرض حيث كان يتبعها بلاد الشام وبلاد الحجاز .

٢ ــ تهديم المدينة المنورة في شبه جزيرة العرب ، ونبش قبر الرسول ﷺ ، وأخذ كنوزه حيث كان يتصور أن ضريحه مليء باللآلىء والجوهرات شأن الفاتيكان ، وسرق رفاة الرسول ﷺ ، ويجعلها رهينة حتى يتخلى المسلمون عن الأماكن المقدسة في فلسطين .

ولننظر إلى خطابه الذي ألقاه قبل هجومه الثاني على مدينة

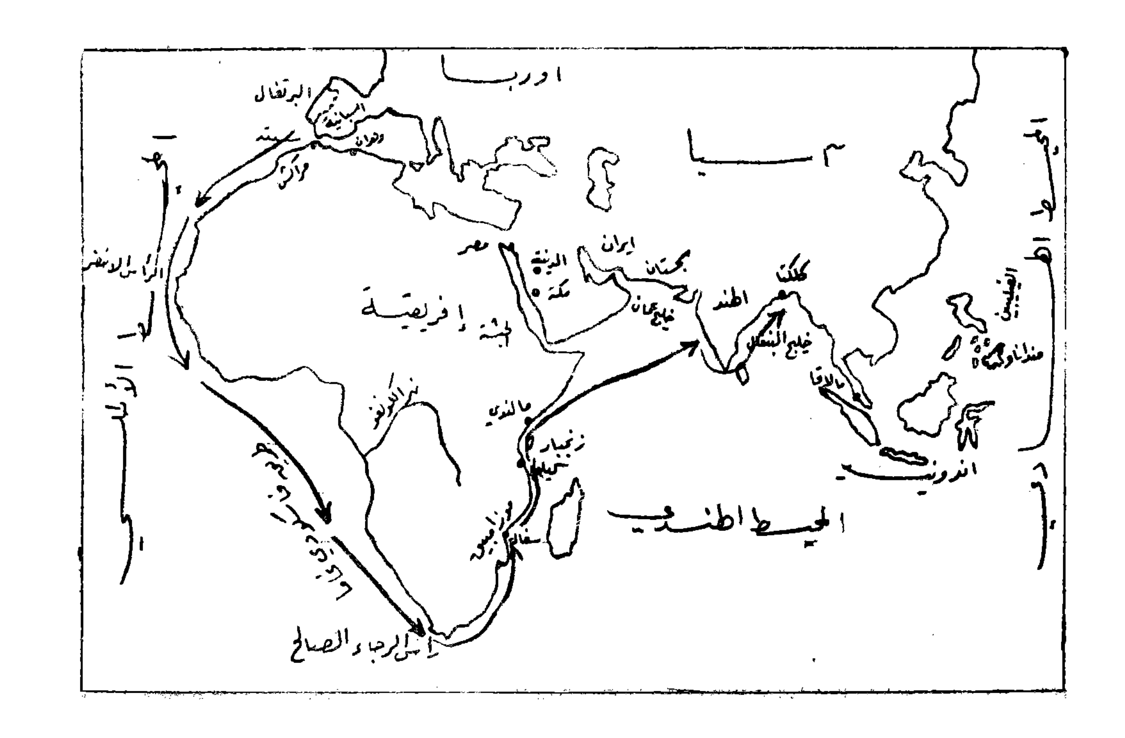
مالاقا في شبه جزيرة الملايو عام ٩١٧هـ - ١٥١١م حيث يقول « الأمر الأول هو الخدمة الكبرى التي سنقدمها للرب عندما نطرد المسلمين من هذه البلاد ، ونخمد نار هذه الطائفة المحمدية حتى لا تعود للظهور بعد ذلك أبداً ، وأنا شديد الحماسة لمثل هذه النتيجة ... إذا استطعنا تخليص مالاقا من أيديهم فستنهار القاهرة ... وستنهار بعدها مكة [١] » .

وإن انتصار البرتغاليين على مالاقا قد هز أوربا طرباً ، فقد استدعى ذلك إقامة قداس شكر في عام ٩٢١هـ - ١٥١٥م ، وقد قال أحد الخطباء في هذا القداس وهو « كاميلوبورتيون » وأمام ليو العاشر : إن هذا سيسهل استعادة القدس ، وفسر كيف أن الصليب وصل إلى أماكن بعيدة ، واتهم سلطان مالاقا بأنه مسلم متعصب يكره النصارى ، ونادى بحروب صليبية جديدة لاحتلال القدس [٢] .

ونشم روائح الحقد من الرسائل المتبادلة بين ملك البرتغال

---

(١) الاسلام في الشرق الاقصى تعريف الدكتور نبيل الطويل
(٢) نفس المصدر


أوربا
آسيا
البرتغال
إفريقية
الحبشة
مصر
المدينة
مكة
إيران
الهند
كلكتا
خليج عمان
خليج البنغال
ملاقا
الفيليبين
اندونيسيا
المحيط الهندي
المحيط الأطلسي
المحيط الهادي
الرأس الأخضر
نهر الكونغو
ماليندي
زنجبار
موزامبيق
رأس الرجاء الصالح
طريق فاسكو دي جاما

عمانوئيل وملكة الحبشة إليني حيث جاء في رسالة للملكة تقول فيها « باسم الله والسلام على عمانوئيل سيد البحر وقاهر المسلمين القساة الكفرة ، تحياتي إليكم ودعواتي لكم ، لقد وصل إلى مسامعنا أن سلطان مصر جهز جيشاً ضخماً ليضرب قواتكم ويثأر من الهزائم التي ألحقها به قوادكم في الهند[1] ، ونحن على استعداد لمقاومة هجمات الكفرة بارسال أكبر عدد من جنودنا في البحر الأحمر وإلى مكة أو جزيرة باب المندب ، وإذا أردتم نسيرها إلى جدة أو الطور[2] ، وذلك لنقضي قضاء تاماً على جرثومة الكفر ، ولعله قد آن الوقت لتحقيق النبوءة القائلة بظهور ملك مسيحي يستطيع في وقت قصير أن يبيد الشعوب الاسلامية المتبربرة ، ولما كانت قواتنا متوغلة في الداخل وبعيدة عن البحر الذي ليس لنا فيه قوة أو سلطان فإن الاتفاق معكم ضروري ، إذ أنكم أهل بأس شديد في الحرب البحرية »[3] .

يتضح مما سبق أن دوافع الاكتشافات البرتغالية لم تكن

(١) تعتبر الملكة المسلمين في مصر والهند أمة واحدة وهذا شيء طبيعي ، فرابط العقيدة هو الرابط الطبيعي .

(٢) الطور يقصد بها طور سيناء والمقصود هنا السويس .

(٣) علاقة الدولة المملوكية بالدول الافريقية لحامد عمار .

وراء المعرفة فمن سار وراء المعرفة كان يمتاز بالصفات الانسانية وهـذا لم نلمسه أبداً خلال دراستنا ، كما لم تكن وراء التجـارة والحصول على التوابل ، فمن كان تاجراً أو غريباً اتصف بالتودد إلى أهل البلاد وحسن الصلة بهم ، وهذا لم نشعر به أبـداً من خلال ما ذكرنا ، كما لم تكن وراء الحصول على الذهب والمال لأن هذا لا يبحث عنه في مكان مجهول . إن كل ما قامت به البرتغال لم يكن يدفعها اليه إلا الحقد الصليبي الأعمى في محاولة لتطويق المسلمين والقضاء عليهم قضاء تاماً وهـذا ما كنا نشعر به ونتوقع نتيجته قبل الانتهاء من عرض الأفـكار .

أما اسبانيا وهي الدولة الأقوى والأكثر سكاناً ، بل عندما نقول اسبانيا فكأننا نقصد البرتغال أيضاً ، ونتيجة لهـذا كانت تتلقى مساعدات من اوربا أكبر حيث نجد معظم ملاحيها ليسوا من الاسبان ، وإنما من باقي دول اوربا التي كانت ترفد هذه المنطقة بكامل امكاناتها حيث كانت على تماس مباشر مع المسلمين وفي حرب دائمة معهم وإلا لماذا لم تتلق بقية الدول مثل هذه المساعدات ؟ ولماذا لم تقم بمثل هذه الكشوف وكانت أقوى من اسبانيا والبرتغال اللتين كانتا من دول الدرجة الثانية أو الثالثة .

كانت مهمة اسبانيـا الالتفاف على المسلمين من ناحية الشرق بينما كلفت البرتغال بالتحرك من الجنوب لإتمـام عملية التطويق ، وكانت قد وصلت إلى مسامع الاسبان فكرة كروية الأرض ، وامكانية الوصول إلى الشرق عن طريق الاتجاه نحو الغرب ، كما كانوا على علم أن سفناً مسلمة قد تحركت نحو الغرب ولم تعد ، بل تكررت هذه العملية .

أعطت اسبانيا المعلومات اللازمة لبحارتها القادمين إليها من بقية الدول الأوربيـة ، والمدربين على القتال في مدارس خاصة ، وقـد شحنوا حقداً ضـــد المسلمين ، وملئوا غيظاً من خلال معلومات التاريخ التي ألقيت عليهم مشوهة مغلوطة .

غادر كولومب الجنوي الأصل اسبانيا ومعـه ثلاث سفن في ٣ آب ٨٩٨هـ - ١٤٩٢م ، ووصل جزر كناريا (الخالدات) ، ومنها تابـع رحلته نحو الغرب ، وقد أظهر البحارة قلقهم من طول الرحلة ، وثاروا على كولومب ، وطلبوا إليه الرجوع ، ولكنه تمكن بما أثاره في نفوسهم من حماسة ضد المسلمين أن يهدئهم ، وأخيراً وصل إلى جزر الآنتيل في اميركا الوسطى في ١٠ تشرين الأول من نفس العام .

وتكررت رحلات كولومب حتى بلغت أربعاً ، ولكنه لم يستطع خلالها من الوصول إلى الغاية المطلوبة وهي تطويقُ المسلمين ، لذا ألقي عليه القبض ، وأرسل مقيداً إلى اسبانيا ، واتهم بالتواطؤ ، وأخيراً عفي عنه .

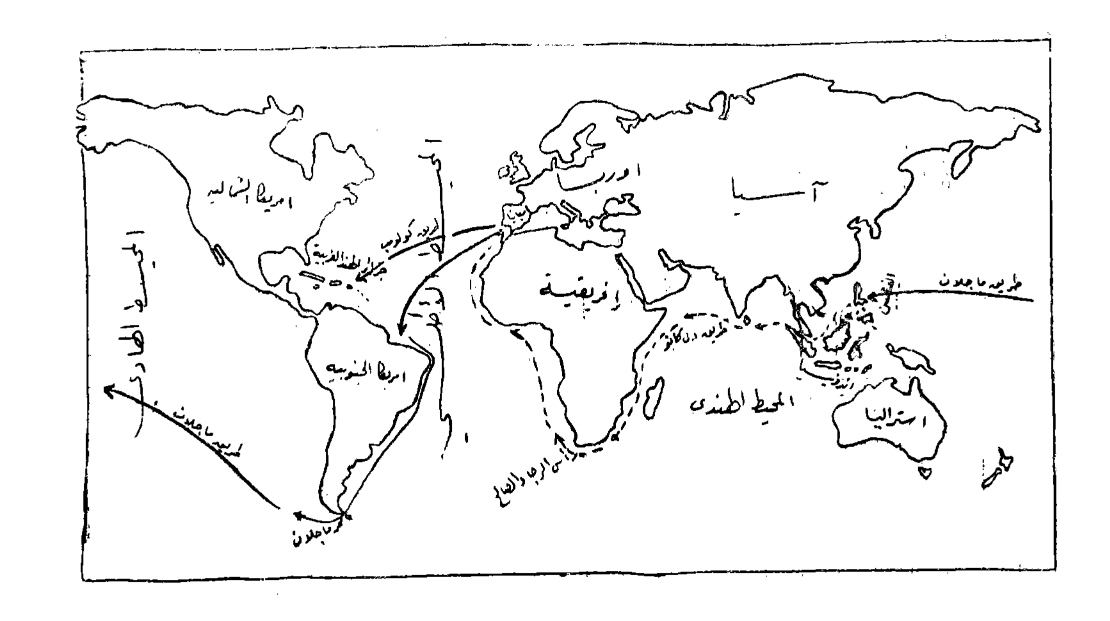
ثم قام أمريكوس فيسبوشي الفلورنسي الأصل برحلة ، وعرف أن ما وصل إليه كولومب إنما هي أرض جديدة بالنسبة إلى اوربا ، وبدأت حرب الإبادة بالنسبة إلى سكان اميركا الأصليين ، ولا سيما إن وجد بينهم أحد من المسلمين ، ونحن نتوقع أن عدداً من المسلمين كان يقيم هناك - كما سنوضح - ولكن طمست الحقائق ، وأخفيت المعلومات .

ثم غادر ماجلان اشبيلية في ايلول ٩٢٦ هـ - ١٥١٩م ، وطاف حول اميركا الجنوبية ، ومرَّ من أقصى جنوبها من ممر أرض النار الذي عرف فيما بعد باسم مضيق ماجلان ، ودخل المحيط الهادي ، وسار فيه ثلاثة أشهر وعشرين يوماً ، ولم ير خلالها عاصفة ولا يابسة عدا جزيرتين غير مأهولتين ، وقد نقصت منهم المؤن ، وفتك بهم المرض ، وأخيراً وصلوا إلى تلك الجزر التي عرفت فيما بعد باسم جزر الفيليبين تخليداً لملك اسبانيا آنذاك فيليب الثاني .

وقبل قـدوم الاسبان الى تلك الجزر كان أهلها منتظمين في كيانات سياسية صغيرة على رأس كل منها حاكم يدعى « داتو » ويندمج بعضها في كيانات أكبر يحكمها « راجا » .

منذ أن وصل ماجلان إلى تلك الجزر فاحت رائحة الصليبية حتى ملأت الجو بحقدها البغيض الذي يحمل معـه روائح جثث الموتى الكثيرة التي لاقى أصحابها حتفهم بأيدي الصليبية . فقد اتفق ماجلان مع ملك جزيرة سيبو وكان يدعى « هومابون » على أن يدخل في الديانة الكاثوليكية ، مقابل أن يجعله ملكاً على جميع الجزر تحت التاج الاسباني ، ورضي « هومابون » بذلك ، وظن أن ماجلان يستطيع ذلك ما دام يملك بعض الأسلحـة النارية التي جعلته يتكلم من مركز القوة ، ويظن بنفسه أنه ملك الثقلين .

أخذ ماجلان يعمل على تمكين صديقه من السيطرة على بقيـة الجزر ، وانتقل الاسبان من جزيرة سيبو إلى جزيرة صغـيرة بالقرب منها ، وكان عليها سلطان مسلم يدعى « لابو لابو » وبمجرد أن علم الاسبان أن الحاكم مسلم ثار حقدهم وصبوا جام غضبهم على السكان حيث طاردوا النساء ، وسطوا على الطعـام ، فقاومهم الأهالي ، فأضرم الاسبان النار في أكواخ السكان ، وفروا هاربين ..


المحيط الهادي
امريكا الشمالية
اوربا
آسيا
افريقية
امريكا الجنوبية
المحيط الهندي
استراليا
طريق ماجلان
طريق كولومب
رأس الرجاء الصالح

رفض « لابو لابو » المسلم الخضوع لماجلان ، وحرض سكان الجزر الأخرى عليه ، ورأى ماجلان الفرصة مناسبة لإظهار قوته وأسلحته الحديثة حتى يرهب بقية الأمراء والسلاطين ، وذهب مع فرقة من جنوده مزودين بأسلحتهم لقتال « لابو لابو » وتأديبه .. طلب ماجلان من « لابو لابو » قائلاً : « إنني باسم المسيح أطلب إليك التسليم ، ونحن العرق الأبيض أصحاب الحضارة أولى منكم بحكم هذه البلاد » ، فأجابه السلطان المسلم « لابو لابو » : « إن الدين كله لله ، وإن الإله الذي أعبده هو إله جميع البشر على اختلاف ألوانهم » . ثم هجم على ماجلان وقتله بيده ، وشتت شمل فرقته ، ورفض تسليم جثته للاسبان ، ولا يزال قبره هناك في جزيرة سيبو شاهداً على ذلك .

تابع نائب ماجلان « دل كانو » الطريق ، وعاد إلى اسبانيا عن طريق اندونيسيا ــ رأس الرجاء الصالح ، فوصلها في ١٦ ايلول ٩٢٩ هـ ــ ١٥٢٢ م على ظهر سفينة واحدة ، وهي التي بقيت من أصل خمس سفن تألف منها اسطول ماجلان عند بدء الرحلة ، وصلت وعليها ١٨ راكباً من أصل ٢٦٥ راكباً انطلقوا من اشبيلية .

بعثت اسبانيا أربع حملات أخرى متتابعة ، ومن سوء حظ هذه الحملات أنها نزلت على شواطىء جزيرة منداناو جنوب الفيليبين حيث يكثر المسلمون ، فقتل أفراد الحملات جميعاً لما أبدوا من حقد وروح صليبية ، إذ أعلن الاسبان صراحة أنهم جاؤوا لتطبيق سياسة هدفها :

١ — توسيع رقعة الممتلكات الاسبانية .

٢ — تنصير سكان البلاد التي يحتلونها .

ولا يخفى على إنسان ما في هذه السياسة من أحقاد وضغائن، وخاصة على المسلمين الموجودين هناك حيث لا يوجد أمامهم أمام تطبيق هذه السياسة إلا الارتداد واعلان النصرانية أو الموت الذي لا يزال يلاحقهم حتى الآن .

وهكذا نرى أن الروح الصليبية لم تكن أقل ظهوراً عند الاسبان منها عند اخوانهم البرتغاليين . وهكذا كانت الدوافع الحقيقية لاكتشافات أوربا الجغرافية هي الروح الصليبية الحاقدة كذلك يمكن أن نجعلها تتمة للحروب الصليبية أو فاتحة للحروب الصليبية الجديدة التي عرفت باسم الاستعمار .

حقيقة الاكتشافات الجغرافية

عرفنا الدوافع التي دفعت أوربا للقيام بما أسمته الاكتشافات الجغرافية ، ولكن يجب أن نعرف الآن ماحقيقة هذه الاكتشافات ، هل أول مرة عرف العالم هذه المناطق التي وصل اليها الصليبيون أم كانت معروفة من قبل ؟ وإنما وصلها الأوربيون بعد أن نفضوا عن أعينهم غبار الجهل لأول مرة فاعتبروها اكتشافات خالدة لم يسبقهم إليها أحد ، وسيطروا بعدها على العالم ، فأملوا عليه ما اعتقدوا ، وأخذ الناس منهم هذا الكلام على أنه حقيقة واقعة ، وقلدهم من سار على نهجهم حتى ساد هذا الكلام وتناقلته المدارس ودور العلم ، وقد آن الأوان لإظهار الحقيقة واملاء الواقع وتعليم الناس الحق .

إن الاكتشافات التي نريد معرفة حقيقتها هي التي تمت على أيدي البرتغاليين والاسبان في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي مطلع القرن العاشر الهجري ، وهي الوصول إلى رأس الرجاء الصالح في أقصى جنوب قارة إفريقية ، والوصول الى القارة الامريكية .

١ – الوصول الى رأس الرجاء الصالح

دفعت الرياح بسفن بارتلمي دياز نحو الجنوب عام ٨٩١ هـ – ١٤٨٦ م ، وهو يسير ويتنقل نحو الجنوب لامكانيـة تطويق المسلمين ، وأسمى أقصى جنوب إفريقية رأس العواصف ، ثم وصله فاسكودي غاما عام ٩٠٣ هـ – ١٤٩٧ م ، والتف حول إفريقية ، وساير شواطئها الشرقية متجهاً نحو الشمال ، فكان أكثر شجاعة من سلفه حيث كان المسلمون قـــد خرجوا من الأندلس والجولة للاسبان والبرتغال .

ظن البرتغاليون – أو هكـذا أرادوا – أن أقدامهم أول أقدام تطأ تلك المنطقة ، ولكن كان المسلمون قد ارتادوا تلك الأصقاع أثناء تنقلهم جنوباً على سواحل إفريقية الشرقية الـــتي عرفوها من القديم ، والتي أقاموا على طولها مراكز تجارية لهم ، وكانت مدينة سفالة آخر مركز لهم ، وتقع في موزامبيق اليوم جنوب خط العرض ٢٠° جنوباً ، وليس من المعقول ان يكون هـــذا المركز آخر مكان وصلوا اليه ، بل لا يكون المركز التجـاري عادة آخر مكان معروف بل في مكان متوسط ،

فلا بد أن يكون المسلمون قد تنقلوا جنوبا ، ووصلوا إلى أقصى جنوب افريقية ، خاصة وهم سادة البحر في تلك الأيام ، وبيدهم مقاليد التجارة في تلك الجهات ، كما ويذكر البيروني الذي عاش في القرنين الرابع والخامس الهجريين (٣٦٢ — ٤٤٠ هـ) أن اتصال المحيط الجنوبي (الهندي) بالكبير (الأطلسي) عن طريق جنوب افريقية قائم مما يدل على معرفة المسلمين بذلك ، ولم يكن هذا الكلام وتلك المعرفة دون القيام برحلة أو زيارة ، أو نقل عمن زار . ومن المعلوم وكما ذكرنا أن ابن ماجد هو الذي أرشد اسطول فاسكودي غاما في المحيط الهندي ، ورسم له طريق الوصول إلى الهند ، إذ ليس من الممكن أن يكون هذا البحار قد توقف عند سفالة ولا يعرف شيئاً عن المناطق التي تقع جنوبها ، وقد قرأ عن اتصال البحرين في كتب من سبقه إضافة إلى أنه ليس هناك من موانع تحول دون وصول المسلمين إلى أقصى القارة فالموانع تكون عادة عدم اتصال في البر مع وجود مسطحات مائية مجهولة أو اختلاف في المناخ لا يسمح باقامة البشر ، أو تكون هناك موانع بشرية ، وهذا كله غير موجود، فالاتصال البري قائم والسفن الاسلامية تمخر عباب المحيط قادمة

وآبة ، والمناخ جيد بل يميل نحو الاعتدال كلما اتجهنا جنوباً ، وليست هناك تجمعات بشرية تحول دون ذلك ، بل إن الفراغ قائم وسكان تلك المنطقة كانوا على درجة كبيرة من القلة ، وهذا ما جعل المسلمين لا يصلون إلى هناك بتجارتهم إلا نادراً ، مما حدا بالكثير أن يقولوا بعدم معرفة المسلمين لتلك الأرجاء ، ويحسن في هذا المجال أن نذكر ما استدل عليه الدكتور ستانلي تيمبور بعد أن اكتشف قبر في مقاطعة روديسيا على مقربة من نهر الزامبيز ويعود إلى ماقبل ثلاثة عشر قرناً وقد نقش عليه مايلي : « بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله محمد رسول الله . هذا قبر سلام بن صالح الذي انتقل من دار الدنيا إلى دار الآخرة في السنة الخامسة والتسعين من هجرة النبي العربي صلى الله عليه وسلم ». وقد استدل ستانلي تيمبور من ذلك أن المسلمين قد وصلوا تلك الأصقاع في جنوب إفريقية ، وأنهم قد استثمروا مناجم الذهب ، واستدل من آثار عربية أخرى وجدها في تلك البقاع على أن المسلمين قد استثمروا تلك البلاد زمناً طويلاً قبل أن يصل اليها البرتغاليون .

وقـد أثبت أصحاب الخطط ـ وبينهم المقريزي ـ أن كل سواحل إفريقية الشمالية والشرقية والجنوبية ، قد كشفها العرب بعد الفتح الاسلامي بزمن وجيز ، على عهـــد الخلفاء الأمويين والعباسيين ، في إبان مجد العرب وسعة سلطانهم ، ثم توغلوا في مجاهل النيل والنيجر والكونغو .

وفي بدء الفتوح الاسلامية اجتازت مراكبهم سواحل إفريقية كلها ، وملكوا الصومال وممباسا وزنجبار وموزامبيق ، وجزائر القمر ، ووسعوا تجارتهم في تلك الجهـات ، فاتجروا في الذهب وريش النعام والعاج والتوابل والطيوب[١] .

وإضافة إلى هـذا كله فان المصريين القدماء قـد التفوا حول إفريقية من البحر الأحمر وعـادوا عن طريق جبل طارق الذي كان القدماء يسمونه عمود هرقل ، وذلك في القرن السابع قبل الميلاد أيام الملك نخاو الذي كان عظيم الاهتمام بنشر تجارة مصر في العالم الخارجي[٢] .

إذن عرف المسلمون أقصى جنوب إفريقية قبل أن يعرفـــه

---

(١) الجغرافيون العرب : مصطفى الشهابي ص ٣١
(٢) الجغرافيون العرب : مصطفى الشهابي ص١٦ ـ ١٧ ـ ١٨ بتصرف

البرتغاليون بمدة طويلة ، وادعاء البرتغال بأنها أول من عرف رأس الرجاء الصالح هو ادعاء باطل تماماً ، وإنما جاءت معرفتها تلك لأول مرة بالنسبة لها ولأوربا ، وكانت قبل معرفة بقية الدول الأوربية الأخرى التي كانت لا تزال على حالة من الجهل وإن كانت في أواخر مراحلها .

٢ ـ الوصول الي أميركا :

عندما رست بواخر امريكوس فيسبوشي على شواطىء القارة الامريكية التي حملت اسمه عرف أنها أرض جديدة ، لم تطأها بعد أقدام الأوربيين ، ولم يعلموا بها ، وأنها ليست جزائر الهند الغربية كما ظنها كريستوف كولومب الذي سبقه اليها .

ظن الاسبان ـ أو هكذا أرادوا ـ أن بواخرهم أول بواخر وصلت إلى تلك الأرض ، وأن رجالهم أول رجال عرفوا تلك المنطقة ، ولكن الحقيقة تدحض رأيهم وتكذب ما أرادوا نشره .

١ ـ عنـــدما وصل الاسبان إلى تلك الأرض وجدوا أناساً يقيمون عليها ، كما وجدوا حضارات قائمة ، وتعتبر الآن من جملة الحضارات القديمة المعروفة ألا وهي حضارة الآزتك في المكسيك . فمن أين جاء هؤلاء الناس ؟ أليسوا من البشر ؟ ألا يعود البشر

إلى أصل واحد وهو آدم ؟. إذن وصل الانسان إلى اميركا قبل وصول الاسبان بمدة طويلة ولا يزال تاريخها مجهولاً .

٢ ــ يروي لنا المسعودي خبراً من أخبار مغامرات كثيرة جرت لركوب مياه المحيط الأطلسي إلى آخره فيقول « ويذهب قوم إلى أن هذا البحر أصل ماء سائر البحار ، وله أخبار عجيبة قد أتينا على ذكرها في كتابنا في أخبار الزمان وفي أخبار من غرر بهم ، وخاطر بنفسه ، ومن نجا منهم ، ومن تلف ، وما شاهدوا منه ، وما رأوا . وإذ برجل منهم من أهل الاندلس يقال له خشخاش ، وكان من فتيان قرطبة وأحداثهم ، فجمع جماعة من أحداثها ، وركب بهم في مراكب أعدها في هذا البحر المحيط ، فغاب مدة ، ثم انثنى بغنائم واسعة ، وخبره مشهور عند أهل الاندلس » .

٣ ــ ويروي لنا الادريسي خبر الفتية المغرورين وهم ثمانية شبان أبناء عمومة ركبوا المحيط مخاطرين بأنفسهم فيقول « ومن مدينة لشبونة كان خروج المغرورين في ركوب بحر الظلمات ليعرفوا مافيه وإلى أين انتهاؤه ... ولهم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحمة درب منسوب اليهم يعرف بدرب المغرورين إلى آخر

الأبد . وذلك أنهم اجتمعوا ثمانية رجال كلهم ابناء عم ، فأنشؤوا مركباً حمالاً وأدخلوا فيه من الماء والزاد مايكفيهم لأشهر . ثم دخلوا في البحر في أول طاروس الريح الشرقية (أي هبوبها) ، فجروا بها نحواً من أحد عشر يوماً ، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج ، كدر الروائح ، كثير التروش (أي الصخور التي لايكاد يسترها الماء) ، قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف ، فردوا قلاعهم باليد الأخرى ، « وجروا في البحر من ناحية الجنوب اثني عشر يوماً ، فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل ، وهي سارحة لا راعي لها ، ولا ناظر اليها ، فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها ، فوجدوا عين ماء جارية ، وعليها شجرة تين بري ، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها ، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها فأخذوا من جلودها ، وساروا مع الجنوب اثني عشر يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة ، فنظروا فيها إلى عمارة وحرث فقصدوا اليها ، لينظروا ما فيها . فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق هناك ، فأخذوا ، وحملوا في مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر ، فأنزلوا في دار ، فرأوا بها رجالاً شقراً ، زعروا شعور رؤوسهم ، شعورهم سبطة ، وهم

طوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب . فاعتقلوا فيها في بيت ثلاثة أيام . ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي ، فسألهم عن حالهم ، وفيم جاؤوا ، وأين بلدهم . فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيراً ، وأعلمهم أنه ترجمان الملك . فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم أحضروا بين يدي الملك فسألهم عما سألهم الترجمان عنه فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس من أنهم اقتحموا البحر ليروا مابه من الأخبار والعجائب ، ويقفوا على نهايته . فلما علم الملك ذلك ضحك ، وقال للترجمان : خبر القوم أن أبي أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا في عرضه شهراً ، إلى أن انقطع عنهم الضوء ، وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدي . ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيراً ، وأن يحسن ظنهم بالملك ، ففعل ، ثم صرفوا إلى موضع حبسهم إلى أن بدا جري الرياح الغربية ، فعمر بهم زورق ، وعصبت أعينهم ، وجري بهم في البحر برهة من الدهر . قال القوم : قدرنا أنه جري بنا ثلاثة أيام بلياليها ، حتى جيء بنا إلى البر ، فأخرجنا ، وكتفنا الى خلف ، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار ، وطلعت الشمس ، ونحن في ضنك وسوء حتى

سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحنا بأجمعنا ، فأقبل القوم الينا ، فوجـــدونا بتلك الحال السيئة ، فحلوا من وثاقنا ، وسألونا ، فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا برابر ، فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا : لا ، فقـال : إن بينـكم وبين بلدكم مسيرة شهرين . فقال زعيم القوم : وا أسفي . فسمي المكان إلى اليوم « آسفي » وهو المرسى الذي في أقصى المغرب » .

يعتقد بعضهم أن الفتية المغامرين قد وصلوا إلى جزر آصور التي يرجح أنها كانت مجهولة عند العرب ، ومنها انتقلوا إلى جزر ماديرا ، وقبض عليهم في جزر كناري (الخالدات) .

ولا يستبعـد بعضهم الآخر أن يكون الشاطىء الذي رسوا فيه إحدى جزر أميركا الجنوبيـة في البحر الكاريبي أو الآنتيل لأن مثل هذه المدة التي قطعوها تحملهم إلى هذه المنطقه ، وأنا من أنصار هذا الرأي لأن :

١ ـ الأرض التي وصل إليها هؤلاء الفتية سواء كانت أميركا أو جزر كناري ، فإن المسلمين قد عرفوها من قبل ، وكانوا فيها كثرة بدليل وجود الترجمان الذي يتقن اللغة العربية ، ولا يوضع ترجمان للملك في بلاد لا يوجد فيها من يجيد هذه اللغة إلا الترجمان

نفسه ، وهذا يؤكد معرفة المسلمين لأميركا قبل هؤلاء الفتية لمن يعتقد أن وصولهم كان إليها ، ولكن هذه المعرفة كانت بالوصول دون العودة حيث يصعب الإياب بعد أن يلاقي الذاهبون المخاطر والأهوال في ركوب المحيط فيفضلون البقاء .

٢ – رؤية الفتية للرجال الشقر ذوي الشعر السبط والقدود الطويلة وجمال النساء العجيب تلقي ضوءاً إلى أن الوصول كان لأميركا الشمالية ، وليس إلى اميركا الجنوبية أو جزر كناري ، فإن هذه الصفات التي وصفوها إنما تنطبق على سكان المناطق الشمالية من الهنود الحمر سكان البلاد الأصليين .

٣ – رواية الملك عن فعل أبيه تدل أن المسافة طويلة والاحتمال الأقوى أن تكون البلاد التي وصلوا إليها اميركا وليست جزر كناري .

٤ – تصرف الملك في سجن الفتية ووضع العصائب على أعينهم يدل على معرفة الملك بجهل الآخرين بمكان بلاده ، وصعوبة العودة لطول المسافة والتي دونها لجج البحار ولو كانت المسافة قصيرة مثل جزر كناري ووصلها المسلمون بدليل وجود الترجمان ، لمخرت السفن الاسلامية اليم ذاهبة وآيبة دون مبالاة بالبحر والمسافة .

٥ ـ تقدير الفتيـة لمسيرهم من المكان الذي وصلوا اليـه إلى سواحل المغرب تقدير ليس بصحيح .

٦ ـ الرواية في نهايتها غير صحيحة ، فلا يمكن أن يتخذ الملك هذه الاحتياطات الكبيرة للتعمية عن بلاده ، ثم يأمر بتوصيلهم الى الساحل المغربي على ظهر زورق يعود الى بلاده ، فلربما رآه أحد ، وهذا ما يفسد كل ما وضعه الملك من خطة في سجنهم ووضع العصائب على أعينهم ، بل لربما استدعى ذلك ملاحقة الزورق أثناء عودته . كما ويبدو أن الفتية أثناء ذهابهم لم يعرفوا اتجاه سيرهم تماماً فقالوا : إنه جنوب وهو غير ذلك .

وأخيراً نقول : ليست هذه المغامرة أو هذه المحاولة هي الوحيدة بل جرت عدة محاولات بعضها بشكل إفرادي وبعضهـا بشكل جماعي ، بعضها بصورة شخصية والآخر بشكل رسمي بعلم الدولة ورؤيتها وتخطيطها وإشرافها كما حـدث في القرن الرابـع الهجري حيث انطلقت مائة سفينة ولم تعد . بعض هـذه الرحلات كان بأفراد محدودين وبعضها الآخر بجماعات عديدة ، فلا بد أن يكون قد وصل بعضها واستقر هناك ، وأثر في المجتمع الذي عاش فيه سواء من ناحية العقيدة والدين أم من ناحية البناء والمدنية ، وهذا ماتشير اليـه بعض الملاحظات وتؤكده ، ولكن الاسبان الذين

انطلقوا بروح صليبية قد أزالوا كل أثر لهذا ، وقضوا على المسلمين وآثارهم قبل كل شيء ، وكتموا الخبر ، حتى نسي تماما ، ومن بعض مايؤكد ذلك :

١ – جاء في مجلة المقتطف ١٣٤٥ هـ شهر آب ١٩٢٦ مقالة ملخصة عن مقالة لبرتن كاين في مجلة العالم اليوم World to day ١٣٤٥ هـ شهر شباط ١٩٢٦ ويتكلم فيها عن كتاب عنوانه إفريقية وكشف اميركا لمؤلفه ليوفينر ، ويذكر فيها أن كلمات عربيـة موجودة في لغـات هنود اميركا ، ويقول المؤلف : إن قدم هـذه الكلمات يعود لعام ٦٨٩ هـ – ١٢٩٠ م أي قبل قرنين من وصول كولومب إلى اميركا ، وقال أيضاً : إن هناك بعض العمران العربي مثل بناء الأزد وبناء المابة .

٢ – جاء في مجلة المقتطف أيضاً عام ١٣٦٥ هـ عدد شباط ١٩٤٥ مقال لانستاس الكرمي يقول فيه : « وقد اتجهت بعض الأبحاث العلمية الحديثة إلى القول بأن المسلمين عرفوا اميركا قبل كولومب ، وأشار أصحاب هذه النظرية الى وجود كلمات عربية في لغة هنود اميركا ، وإلى أن كولومب وجد في رحلته الثالثة زنوجاً وذهباً إفريقياً في جزر الهند الغربية (اميركا) ، وأن مدنيـــة بعض

الجماعات الهندية في اميركا تشبه المدنية الاسلامية إلى حد كبير ، ولربما كان هذا الذي جعله يظن أنه وصل إلى جزر الهند .

٣ ـ حاول عرب السودان الغربي في أوائل القرن الثامن الهجري أن يبلغوا الشاطىء الغربي من المحيط الأطلسي ، فقد كانت هناك مملكة اسلامية عظمى في بلاد مالي تعرف باسم بلاد التكرور وهو أحد أقاليم تلك المملكة الواسعة . وقد حكمها في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ملك يدعى « منسى موسى » وحدث أن أراد ذلك الملك الحج عام ٧٢٤ هـ - ١٣٢٤ م فمر بمصر وقابل الملك الناصر ، وقدم له ولأتباعه هدايا فاخرة[١] .

وقد روى مؤلف « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » شهاب الدين بن فضل الله العمري المتوفى ٧٤٨ هـ ، روى هذا أن أحد حجاب الملك الناصر سأل هذا الملك عن سبب انتقال الملك اليه فقال « إن الذي قبلي كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك ، فجهز مائتي سفينة ، وشحنها بالرجال والأزواد التي تكفيهم سنين ، وأمر من فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا غايته ، أو تنفذ أزوادهم ، وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم ، فقال : سارت السفن زمناً طويلاً حتى عرض لها في البحر في وسط اللجة واد له بجرية عظيمة ،

---

(١) الجغرافيون العرب مصطفى الشهابي ص ٣٥

فابتلع تلك المراكب ، وكنت آخر القوم ، فرجعت بسفينتي . فلم يصدقه ، فجهز ألفي سفينة : ألفاً للرجال وألفاً للأزواد ، واستخلفني وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك ، فكان آخر العهد به وبمن معه » .

٤ ـ أكد الدكتور « هوي لزلي » استاذ علم النبات بجامعة بنسلفانيا وهو من أصل صيني ، أكد في محاضرة ألقاها في الجمعية الشرقية الامريكية في مدينة « فيلادلفيا » وقد استند في بحثه إلى وثائق محفوظة في الصين ، ويعود عهدها الى القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، أن المسلمين قد وصلوا الى السواحل الشمالية لاميركا الجنوبية من الطرف الغربي للعالم الاسلامي وبالتحديد من الدار البيضاء ، وقد وصل الدكتور « هوي لزلي » الى هذا الرأي بعد أن أنفق ثمانية أعوام في تتبع انتشار المحاصيل الزراعية والحيوانات في شتى انحاء العالم .

وقد أيد هذه النظرية كل من « الدكتور لين شبخ يانج » استاذ التاريخ واللغة الصينية بجامعة هارفارد ، والدكتور « ريتشارد رودلف » رئيس المؤتمر المذكور وقال « والآن ينبغي على الأساتذة العرب أن يتابعوا دراسة تاريخهم ، وليبدأوا من هذه المنطقة » .

٥ ـ عثر مدير متحف البرازيل قبل نهاية القرن التاسع عشر

على صخرة الى جوار مدينة ريودي جانيرو عليها نقوش قريبة الشكل من الحروف العربية القديمة .

٦ – ذكر رفيق العظم في خطبه ما يلي « وصل المسلمون الى اميركا قبل معرفتها من قبل الأوربيين بأزمنة طويلة فقد أخبرني ثقة أنه بينما كان جالساً يوماً مع جماعة من الأفاضل عند الدكتور فانديك الشهير في بيروت ، جاءه البريد ففتحه ، وأخذ يتصفح الكتب ، فأظهر من واحد منها اندهاشاً عظيماً ، ثم أبرز للجماعة صورة فوتوغرافيـة وردت ضمن ذلك الكتاب ، فإذا بهـا رسم محراب اكتشف في احدى الخرائب في اميركا وعليه آيات قرآنية مكتوبة بالخط الكوفي القديم » .

كل هذا يدل على أن المسلمين قد وصلوا الى اميركا قبل معرفة الأوربيين لها بفترة طويلة ، وأنهم قد أثروا فيها ، ونشروا دينهم وحضارتهم ، وأن الصليبيين الأوائل قد أبادوا المسلمين ، وطمسوا كل آثارهم تقريباً ، وما اكتشف منها الآن فهو ضمن خرائب فعلتها أيديهم .

وأمام هـذا علينا أن نطلق كلمة التوسع الأوربي في اميركا

وجنوب إفريقية بدلاً من كلمة الكشوف الجغرافية ، وآثار ذلك التوسع بدلاً من آثار الكشوف .

علينا أن نعيد النظر في كل ما كتب في التاريخ والجغرافية سواء ماكتبه الأجانب أم مانقله عنهم كتاب مسلمون . وعلينا أن نهتم بالبحث والتحقيق في مبادىء الحضارات وأصولها وأن نوضح للأجيال القادمة أثر حضارتنا في البناء والعطاء ، وحضارة أوربا في الطمس والاخفاء .

وإذا كان ماقلته محاولة لتوضيح حقيقة وتحتاج الى براهين أكثر وأدلة أوضح ، ولربما يأتي بها الزمن إلا أني قد سلكت الطريق وطرقت الباب وعلى الآخرين المتابعة والبحث للوصول الى الحق وهذا مانبغي .

وأخيراً أرجو أن نكون متجردين في أحكامنا هـــذه وفي متابعتنا للموضوع .

الاسلام والكشوف

إن الإسلام يحث على معرفة كل مجهول على وجه الأرض التي هي في نظره كلها وحدة ، ويحض على كشف ما هو غير معروف في هذه الأرض التي هي كلها مسرح للحياة البشرية ، ويدعو إلى التفكر في خلق الله في السموات وعلى سطح هذه البسيطة التي فيها الحياة كتاب مفتوح تتملاه البصائر والأبصار ، والعظة البالغة ينتفع بها قلب التقي فيخفق لها ويتحرك بها ، ويشعر أنه صغير صغير في هذه الأرض والتي هي بدورها صغيرة صغيرة أمام هذا الكون ، فيتملى النظر ، ويمتلىء القلب بعظمة الخالق « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١) » .

يدعو الإسلام البشر للنفاذ في الأرض والارتقاء في الفضاء ما مكنهم إلى ذلك عقلهم الذي وهبهم الله إياه ، بما يحصلون عليه من معارف بفكرهم ، وبما يجمعونه من معلومات يكتسبونها ، وقد فتح الله لهم صحائف الوجود الناطقة بآلاء الله فإنهم لن

---

(١) آل عمران : ١٣٧

يصلوا إلى شيء إلا بإرادة الله وتوفيقه ومدهم بالعون .

إن هـذه الصحائف الناطقة بآلاء الله لتجعل الانسان الذي ينتقل من مكان إلى آخر يحاول الكشف عن الغامض والتعرف على المجهول يزداد عمقاً في التفكر بخلق الله وقدرته ، فكلما أطال التجوال وأكثر من التنقل وجد أشياء جديدة ، وتعرف على مخلوقات غريبة ، فازداد إيمانه بالله العظيم الذي خلق هذه المخلوقات ، وأبدع هذه الآفاق ، وأوجد هذه العجائب ، وصور هذا الواقع .

« إن هـذا الكون بذاته كتاب مفتوح يحمل بذاته دلائل الإيمان وآياته ، ويشي بما وراءه من يد تدبره بحكمة ، ويوحي بأن وراء هذه الدنيا آخرة وحساباً وجزاءً ، إنما يدرك هذه الدلائل ، ويقرأ هذه الآيات ، ويرى هذه الحكمة ، ويسمع هذه الايحاءات « أولو الألباب » من الناس الذين لا يمرون بهذا الكتاب المفتوح ، وبهذه الآيات الباهرة مغضي الأعين غير واعين .

وهذه الحقيقة تمثل أحد مقومات التصور الاسلامي عن هـذا « الكون » والصلة الوثيقة بينه وبين فطرة الانسان والتفاهم الداخلي الوثيق بين فطرة الكون وفطرة الانسان ، ودلالة هذا الكون بذاته على خالقه من جهة ، وعلى الناموس الذي يصرفه وما يصاحبه

من « غاية » و « حكمة » و « قصد » من جهة أخرى ... وهي ذات أهمية بالغة في تقرير موقف الانسان من « الكون » و « إله » الكون سبحانه وتعالى .

والقرآن يوجه القلوب والأنظار توجيهاً مكرراً مؤكداً إلى هذا الكتاب المفتوح ، الذي لا تفتأ صفحاته تقلب ، فيبتدىء في كل صفحة آية موحية ، تستجيش في الفطرة السليمة احساساً بالحق المستقر في صفحات هذا الكتاب ، وفي « تصميم » هذا البناء ، ورغبة في الاستجابة لخالق هذا الخلق ، ومودعه هذا الحق ، مع الحب له والخشية منه في ذات الأوان ، وأولو الألباب أولو الادراك الصحيح يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية ، ولا يقيمون الحواجز ، ولا يغلقون النوافذ بينهم وبين هذه الآيات ، ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ؛ فتفتح بصائرهم ، وتشف مداركهم ، وتتصل بحقيقة الكون التي أودعها الله إياه ، وتدرك غاية وجوده ، وعلة نشأته ، وقوام فطرته بالالهام الذي يصل بين القلب البشري ونواميس هذا الوجود .

ومشهد السموات والأرض ، ومشهد اختلاف الليل والنهار ، لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وادراكنا ، لو تلقيناه كمشهد جديد

تتفتح العيون عليه أول مرة، لو استنقذنا حسنا من همود الإلف، وخمود التكرار، لارتعشت له رؤانا، ولاهتزت له مشاعرنا، ولأحسسنا أن وراء ما فيه من تناسق لا بد من يد تنسق، ووراء ما فيه من نظام لا بد من عقل يدبر، ووراء ما فيه من إحكام لا بد من ناموس لا يتخلف ... وأن هذا لا يمكن أن يكون خداعاً، ولا يمكن أن يكون جزافاً، ولا يمكن أن يكون باطلاً.

ولا ينقص من اهتزازنا للمشهد الكوني الرائع أن نعرف أن الليل والنهار ظاهرتان ناشئتان من دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس، ولا أن تناسق السموات والأرض مرتكز إلى الجاذبية أو غير الجاذبية ... هذه فروض تصح أو لا تصح، وهي في كلتا الحالتين لا تقدم ولا تؤخر في استقبال هذه العجيبة الكونية، واستقبال النواميس الهائلة الدقيقة التي تحكمها وتحفظها وهذه النواميس ـ أياً كان اسمها عند الباحثين من بني الانسان ـ هي آية القدرة، وآية الحق في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار»[1]. «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً

---

(١) في ظلال القرآن الجزء الرابع.

وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار »[1].

إن البشر أثناء ترحالهم يرون كيف تتحول الأرض في بعض الأحيان إلى منطقة فيها اضطراب فيرتج كل شيء فوق ظهرها، ويمور كل ما عليها ويضطرب فلا تمسكه قوة ولا حيلة، ذلك عند الزلازل والبراكين.

وكذلك يشهد البشر العواصف الجامحة الحاصبة التي تدمر وتخرب وتحرق وتصعق وهم بازائها ضعاف عاجزون، وتأخذ كل شيء في طريقها في البر والبحر والجو.

كذلك يرى البشر طوفان الماء وطغيان البحر وتهطال المطر الغزير الذي يسبب جريان السيول الجارفة، وفيضان المياه العارمة، وامتلاء المنخفضات، ويكون هلاك الناس والدواب والشجر.

إن هذه المشاهدات فيها الاعتبار وفيها الخوف من الهول العظيم، وهو لا يعادل شيئاً من هول يوم القيامة، ولا يساوي شيئاً من ذلك الرعب، وفيها الإنذار وفيها التحذير مما يصيب ويقع بالأمة إذا هي عتت عن أمر ربها كما أصابت هذه الأحداث

---

(١) آل عمران: ١٩٠ - ١٩١.

الأمم السابقة الذين كذبوا بآيات الله ، فأخـــذهم الله بذنوبهم فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم « فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب ألـــيم ، تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ، ولقد مكنـاهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنـــا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون [1] » . « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين » [2] . « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لـكم كيف فعلنا بهم وضربنا لـكم الأمثال[3] » .

إن في هذه الأسفار تأمل واعتبار ، دراسة وتجربة ، تأمل للكون والمخلوقات ، واعتبار من تاريخ الأمم السابقة ، ودراسة ما أصابهم لما عتوا عن أمر ربهم وبعد ذلك فهي تجربة على الطبيعة في كل موقع وعلى أي أرض « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا

---

(١) الاحقاف : ٢٤ ــ ٢٦
(٢) القصص : ٥٨
(٣) ابراهيم : ٤٥

في الأرض فانظروا كيف كان عاقبـــة المكذبين [1] » « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفـــلا تعقلون [2] » « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون [3] » « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً [4] » « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبـــة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق [5] » « أفلم يسيروا

---

(١) آل عمران : ١٣٧
(٢) يوسف : ١٠٩
(٣) الروم : ٩
(٤) فاطر : ٤٤
(٥) غافر : ٢١

في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون[1]».

إن التنقل في الأرض في سبيل الحصول على الرزق سواء كان بالتجـــارة أم باستثمار الأرض كثيراً ما يؤدي إلى كشف المجهول ومعرفة الغامض في مناطق جديدة أو حياة شعوب بعيدة، كما يؤدي إلى دعوة سكان تلك الأصقاع إلى الإسلام وإنا لنعرف فضل أولئك التجار من المسلمين الأوائل والرحالة الذين جابوا أرجاء واسعة وآفاقاً بعيدة فعرفوا جزر شرق آسيا وأرخبيلاتها وأطلقوا عليها بلاد الواق الواق أي آخر الدنيا كما دعوا سكانها إلى الإسلام فاستجابوا، وبهذه الطريقة عم الإسلام ماليزيا واندونيسيا وانتشر في الفيليبين وشرق الصين، وقد حث الإسلام السير في الأرض والسعي فيها «الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور»[2].

إن المسلم في تجوالة يتعرف على أوضـــاع إخوانه المسلمين وأحوالهم، يشعر بماهم بحاجة إليه، وماهي وسائل النهوض بهم، يعيش معهم في مصائبهم، ويشاركهم آلامهم.

---

(١) غافر: ٨٢.
(٢) الملك: ١٥

إن التنقل والكشوف تعطي الإنسان معرفة مناطق مجهولة فيدرس السكان وطريقة دعوتهم من خلال عاداتهم وأعرافهم وتقاليدهم وأخلاقهم وعيوبهم ومفاخرهم وعقيدتهم ومشاعرهم ، وما هو محبب إليهم ، وما يكرهونه ، إن هذه المعرفة تمكن المسلمين من دعوة سكان هـــذه المنطقة التي كانت مجهولة لهم واتخاذ الطريقة التي تناسبهم في الدعوة .

إن الأوربيين قد خصصوا رجالات منهم في كل الموضوعات التي تهمهم معرفتها وبشكل خاص ما يتعلق منها بالعلوم الاجتماعية والوسائل التي يستطيعون أن ينفذوا إلى الأفراد بواسطتها ، وللطرق الكفيلة بالتأثير على المجتمع والخطط اللازمة لجلب الشعب نحوهم ، وما يعطونه من معلومات على دفعات ، وما يقدمونه على غيره ، هذا بعـد أن أرسلوا من عرفوا باسم المستشرقين الذين درسوا السكان دراسة وافية ، وتجولوا في مناطقهم ، وخبروا عاداتهم .

هذا من جانب ومن جانب آخر كانت عملية التهديم عن طريق التشكيك في العقيدة في نفوس المسلمين من خلال دس السم خلال الكتب التي وضعها المختصون من الأوربيين ، ويكفي عندهم تقديم فكرة واحدة ضمن أبحاث كتاب كبير يحوي معلومات قيمة

للاقبال على قراءته والتأثر به . ثم أرسلوا المبشرين لبلاد المسلمين وغيرها بعد أن زودوهم بكل ما يحتاجون إليه من معلومـــات جاهزة أمضى البحاثة في إعدادها وقتاً غير قليل ، وبما يطلبونه من إمكانات مادية .

إن الكشوف الجغرافية التي يقوم بها المسلمون يمكن أن تقـــدم لهم بعض الفوائد في الدعوة ونشرها وزيادة الإيمان في النفوس لذلك يحث الإسلام على القيام بها والتعرف على كل مجهول في الأرض التي استخلف الإنسان فيها .

الخاتمة

لم أتوسع في معنى الكشوف كما توسع بعض الجغرافيين ، وذلك لأن كلمة كشوف ما إن تذكر حتى يتبادر إلى الذهن اكتشاف أمريكا ومعرفة رأس الرجاء الصالح ، وهذا ما قصرت بحثي عليه ، وأكدت على بعض النقاط التي نحن بحاجة إليها اليوم ، اليوم الذي نبغي فيه الاستقلال الفكري والتميز التاريخي ، ولعل أهم هذه النقاط هي العوامل التي دفعت أوربا للسير وراء هذه المعرفة والاكتشافات ، ووجدت أن التوسع يخرج كلمة الكشوف عن معناها المألوف ، ويجعل من قراءة بحوثها المطولة أمراً عسيراً ، ومن فهم مراميها مشكلة صعبة حيث يسير القارىء في متاهات الأسماء الكثيرة التي تمر معه ، وأسماء المناطق العديدة التي يقرؤها فتضيع الفائدة ، هذا إضافة إلى أن الموضوع المطول لا يهتم به إلا أصحاب الاختصاص والثقافة ، وهم عندنا – مع الأسف – قلة ، أما الموضوع القصير فيقدم على مراجعته عدد أكبر ولربما حصلت من ذلك فائدة أكبر .

وهذه الرسالة أعدت للجيل المتلهف لمعرفة ماضيه ، المتشوق لبحث حضارته السابقة ، الراغب في الفكر الذي يقوده إلى العمل ، ويدفعه إلى الكشف عن الحق ، وبذا تتكامل الطاقات ، وتكون

أحسن النتائج ـ بإذن الله ـ . أما المعنى الواسع الذي ذكره الباحثون المحدثون ومنهم الدكتور يسري عبد الرزاق الجوهري في كتابه الذي أخرجه للمرة الثانية « الكشوف الجغرافية » فقد تناول فيه المناطق التي وصلها قدماء المصريين وسكان بلاد الرافدين والفينيقيون والاغريق والرومان وأطلق عليها اسم كشوف كما بحث الجغرافية في العصور الوسطى وبين تقدم العرب في هذا الميدان ، وذكر أسماء رجالاتهم الذين كتبوا في هذا الباب والذين رحلوا إلى مناطق بعيدة وأطلق عليها اسم كشوف ، وبين جهل أوربا وغفلتها في تلك العصور ، ثم أسباب نهضتها بعد الحروب الصليبية والبعثات التبشيرية التي أرسلتها ، ثم كتب عن الكشوف التي تمت على أيدي الاسبان والبرتغاليين ، ورغم تقديري للجهد الذي بذله في إعداد هذا الموضوع إلا أن ما جاء فيه كان تقليدياً لا يختلف عما كتبه الأوربيون ولا عن الذين أخذوا عنهم وهم معظم الكتاب ، كما أنه أهمل الدوافع التي جعلت أوربا تسير وراء ذلك وتدفع اسبانيا والبرتغال لما قامت به رغم أنه يمكن أن يستشم من البعثات التبشيرية التي أرسلتها أوربا عقب الحروب الصليبية التي أشار إليها ، أو أنه ألقى بصيصاً من نور عليه من ثقب صغير لا يكاد يرى ، ولم يجرؤ أن يدخله من بابه الواسع الواضح . ثم يتحدث عن التبشير في آسيا وإفريقية والتوغل في العالم الجديد ، ويتوسع هنا أكثر في معنى الكشوف حتى يصل

إلى حد يتحدث فيه عن الكشوف التي تمت على أيدي المستعمرين في سورية والعراق وجزيرة العرب ، كما يشير إلى كشف المناطق القطبية وهي لفتة جيدة ، ويختم بحثه عن التفكير الجغرافي في العصور الحالية .

إن الكشوف الجغرافية رغم كل هذا لا يزال يفهم من ذكرها معرفة امريكا ورأس الرجاء الصالح ، وإن ما تم حديثاً من معرفة للمناطق القطبية فإنما قد تم بعد توسع الفكر ومعرفة معظم أجزاء الأرض ، وبعد أن أصبحت الوسائل العلمية والمادية ميسرة وتسهل القيام بمثل هذه الكشوف لذا فإن أهميتها دون أهمية الكشوف السابقة والتي استطاع الانسان فيها بوسائله البسيطة من سفن شراعية أن يجتاز المحيط الأطلسي ويغالب الأمواج ، ويتغلب على المخاطر ، ويخاطر بنفسه ، لذا بقيت لها أهميتها ، بل وقادت الذهن إلى الاتجاه نحوها مجرد ذكر كلمة كشوف .

إن الضرورة تقضي بالتأكيد على دراستها بشكل متجرد وتوضيح دور اسلافنا العلمي والعملي والسير في ضحى جديد في تدوين التاريخ والجغرافية وتسجيلها .

وأخيراً نرجو أن تكون أعمالنا خالصة لله ، نبتغي فيها رضاه ، وأن تكون فيها الفائدة المرجوة ، والحمد لله رب العالمين .